حياة هكسلي واشغاله

من خطبة للورد افبري (السر جون لبوك) تلاها في مجمع علم الانسان (الانثربولوجيا) ببلاد الانكليز

لقد سررت بالدعوة من مجلس ادارتكم لتقديم الخطبة الاولى من الخطب التي تتلى تذكاراً لهكسلي لما في نفسي من الحب له والاعجاب به والصداقة التي طال عهدها بيننا وليس ذلك فقط بل لانني شاركته في انشاء هذا المجمع فقد كان رئيساً لجمعية علم الاخلاق فلما امتزجت مع جمعية علم الانسان وصارا مجمعاً واحداً رأينا كلنا انهُ يجب ان يكون هكسلي اول رئيس له . ولم اقبل ان اكون انا الرئيس الاول الاَّ بعد ما رأينا اصراره على الرفض . وتأسيس هذا المجمع هو شيء من اشياء كثيرة شاركته فيها فانني وان كنت دونهُ علماً ومعرفة انتصرت مثله لداروين من حين نشر كتابهُ " اصل الانواع " وبذلت جهدي في الدفاع عن الحقائق العلمية ومقاومة الاضاليل وتلقي الشتائم التي كانت تنهال عليه . ووقفت انا والسر جوزف هوكر الى جانبه في مناظرة اكسفرد الشهيرة سنة ١٨٦٠ وفي تلك السنة اشتركنا في تحرير مجلة التاريخ الطبيعي

واشتركت معهُ ايضاً في جمعية أُخرى صغيرة اسمها " اكس كلب " وكان من اعضائها جورج بنك سكرتير جمعية لينوس الطبيعية وادورد فرنكلند رئيس الجمعية الكيماوية وهرست رئيس مدرسة علم الملاحة والسر جوزف هوكر وهربرت سبنسر ووليم سبوتسود رئيس الجمعية الملكية والاستاذ تندل . أُنشئت هذه الجمعية سنة ١٨٤٤ ومضى نحو ثماني عشرة سنة قبلما مات احد منا ولكن لم يبقَ منا الآن في قيد الحياة الاَّ انا وهوكر وسبنسر . وكنا نتعشى سوية مرة كل شهر ما عدا اشهر الصيف الثلاثة ولم نكن نقرأ مقالات ولا نعمل اعمالاً رسمية وانما كان غرضنا جمع بعض الاصدقاء الذين تربطهم رابطة الصداقة ويشتغلون في مواضيع واحدة . ولم تحلَّ هذه الجمعية ولكننا اجتمعنا آخر مرة سنة ١٨٩٣ ثم لم نجتمع بعد ذلك . وسنة ١٨٦٩ انشأنا جمعية ما وراء الطبيعيات وسيأتي الكلام عليها . ومن سنة ١٨٧٠ الى سنة ١٨٧٥ كنت معهُ في اللجنة التي عينها دوق دفنشير للبحث في التعليم العلمي فاجتمعنا مراراً كثيرة واقررنا على امور شتَّى عُمل بها بالتدريج

وقضيت معهُ اوقات انس كثيرة في سويسرا وبرتني واماكن أُخرى واخيراً كنت جالساً معهُ في المجمع البريطاني بأكسفرد لما خطب اللورد سلسبري خطبة الرئاسة وكان قد فُرض عليه ان يقوم بعد الخطبة ويشكر اللورد سلسبري فاصغيت اليها وانا لا ادري ما يقول حينما

يقوم لشكرهِ. فالتفتَ اليَّ حينئذٍ واسرَّ في اذني قائلاً كم كنتُ اودُّ ان تُطرَح هذه الخطبة للبحث والمناظرة

وقد عزم من حداثة سنهِ على ان يبذل وسعهُ في كل عمل نافع وكان وسعهُ كبيرًا فاكثرَ من المطالعة وطالع كل كتابٍ وصلت اليهِ يدهُ من التوراة الى مقالات هملتن في الفلسفة. وكثيرًا ما كان يقضي وقت اللعب في المطالعة . وكان ميلهُ مصروفًا في اول الامر الى علم الهندسة العملية واراد ان يصير مهندسًا ثم مال الى علم الفسيولوجيا لان فيها هندسة الاجسام الحية وقال في هذا الصدد "ان الجانب الوحيد من شغلي الذي كان يلذُّ لي الاشتغال بهِ الفسيولوجيا التي هي هندسة الجسم الحي . ومع ان العلم الطبيعي كان شغلي الخاص لكنني لم اكن مولعًا بهِ فانني لم اجمع شيئًا من المجاميع الطبيعية وكان البحث عن الانواع عبئًا ثقيلاً عليَّ .وانما كنت اهتمُّ بالبحث عن بناء الاجسام وهندستها ووحدة نظامها مهما اختلفت انواعها"

وعُيِّن سنة ١٨٤٦ للبحث الطبيعي في السفينة المسماة رتلسناك التي أُرسلت الى بحار المشرق للبحث فيها فوفى بما يُطلَب منهُ واوفى حتى يُستَغرَب مقدار ما اشتغلهُ في تلك الاحوال الحرجة كما قال السر ميخائيل فوستر في تأبينهِ فانهُ "اشتغل في وسط العوائق الكثيرة في مكان ضيق لا نور فيهِ طالبًا ان يكتشف اسرار الابنية الحيَّة الدقيقة بميكرسكوب ينود بنودان السفينة في حجرة حرجة لا يسمع فيها الاَّ ضوضاء التجَّارة حيث لا كتب الاَّ ما ندر ولا صديق يستشيرهُ في ما يراهُ من الغرائب الجديدة ومع ذلك جمع في تلك السنوات الاربع مقدارًا كبيرًا جدًّا من الحقائق العلميَّة الدقيقة واكثرها جديد ورسم كل ما رآهُ رسمًا دقيقًا"

والحقيقة التي لا ريب فيها ان هكسلي كان من كبار الهمم الذين يفلحون في كل عمل اخذوا فيهِ . فكان من ارباب الاقلام ولو انقطع للانشاء لكان لهُ المقام الاعلى في ديوان الادب . ولم يكن في التصوير دون ما هو في الانشاء وكل الذين سمعوا خطبهُ يذكرون كيف كان يرسم بقلم الطباشير على اللوح الاسود رسومًا تظهر كالحقيقة تمامًا وقلَّما اطوع من بنانهِ . وكان مغرمًا بالرسم حتى اذا كنَّا جالسين في لجنة لا ينفكُّ عن رسم الرسوم الهزلية على ما امامهُ من الورق مع انهُ كان يصغي اصغاء تامًّا الى كل ما يقال. ولا شبهة في انهُ كان من ابلغ الخطباء. والخطابة موهبة عظيمة ونفعها للاساتذة كبير من غير ريب ولو قيِّض لهُ ان ينتظم في سلك رجال السياسة لكان لهُ المقام الاسمى بينهم . وعندي انهُ لو انتُخب لمجلس النوَّاب لكان من قيامهِ فيهِ نفع للبلاد لا يُقدَّر فانهُ لم يكن في مجلس النوَّاب احد امهر منهُ في فن المناظرة . وخطبهُ مثل كتبهِ في الفصاحة وحسن البيان وتزيد عليها في ان السامع يضطر ان ينظر الى

الخطيب ويمعن نظرهُ فيهِ فيرى مهابةً وبساطةً وشخصاً تعشَّقهُ القلوب كما تعشق معانيهُ العقول. وخطبهُ التي كان يتلوها في ليالي الجُمَع في دار العلم الملكية كانت تضاهي خطبَ تندل في بلاغتها وإعجاب الناس بها ونقاطرهم لسماعها. ولم يكن كذلك في اول امرهِ بل كان فيهِ كل عيب من عيوب الخطباء على ما قال. ولما خطب خطبتهُ الاولى في دار العلم الملكية اتاهُ كتاب ينصحهُ فيهِ كاتبهُ ان لا يجرّب الخطابة مرةً أُخرى لانهُ لا يصلح لها. وخطب مرةً في علاقة الحيوان بالنبات فودَّ كثيرون ان لا يُدعى للخطابة مرةً اخرى. وقد اخبرني بعد ذلك انهُ كان يقوم للخطابة فيضطرب في اول الامر ويحتبر عن الكلام مرارًا ولكنهُ لا يلبث ان ينطلق عقال لسانهِ فيجري كالسيل المنهمر

ولا شبهة في ان السامعين لا يُصغون الاصغاء التام الاَّ الى ما يعنى الخطيب بالقائهِ عليهم. وقد كان هكسلي يبذل جهدهُ في جعل خطبهِ مفيدة ملذَّة لسامعيهِ سواء كانوا من الخاصَّة في دار العلم الملكية او من العامة في مجامع العمال. وكان المظنون ان العلم شيء رفيع لا يفهمهُ جمهور الناس فقام وابان ان العلم امر جوهري وثمارهُ دانية القطوف يفكه النفس اكثر مما تفكهها القصص والروايات. ومَن لا يقتفِ خطوات العلم في مكتشفاتهِ الجديدة يحرم نفسهُ اكبر لذة من ملاذ الحياة واعظم هبة من المواهب التي منحنا اياها الله لان هذه المكتشفات غريبة مدهشة تسرُّ النفس وتفكهها وتطلعها على ما في الكون الذي حولنا من الجمال الرائع والاتقان المدهش والذي نحن فيهِ كلا شيء بالنسبة اليهِ ولو عددنا لانفسنا المقام الاول فيهِ

ولكل شيء وقت ولا يستطيع الانسان ان يوفي العلم حقهُ ما لم يرح نفسهُ من العناء ويجلي صدأ التعب بشيء من الهزل والمزح وقد كان هكسلي كثير الهزل فكه الحديث يطلق لسانهُ بالمزح حين لا يُنتظَر منهُ ذلك. خطب احدهم مرة في طبائع الزيتلاة وذكر انها تهجم على زوجها بعد اقترانهِ بها وتمتص دمهُ فلا يمنعها حبًّا لهُ عن فتكها بهِ فلما قام هكسلي للشكر على خطبتهِ قال ان هذه الحفلة اغرب حفلات الزواج التي شهدها في حياتهِ

وعهدت اليهِ مناصب كثيرة فكان كاتبًا للجمعية الملكية ثم رئيسًا لها ورئيسًا للجمعية الجيولوجية والجمعية الاثنولوجية واستاذًا لتشريح المقابلة من سنة ١٨٦٣ الى سنة ١٨٧٠ وامينًا للمتحف البريطاني ومديرًا لمدرسة العلم الملكية ورئيسًا لمجمع ترقية العلوم البريطاني وفتشًا لمصايد الاسماك وعضوًا في مجلس ادارة مدرسة لندن الجامعة وعضوًا في عشر لجان ملكية وكان يخطب في دار العلم الملكية عدا الخطب التي تقتضيها وظيفتهُ. وسنة ١٨٩٢ جُعل عضوًا في المجلس الخاص (مجلس الملكة) اعترافًا بخدمهِ الكثيرة لبلادهِ

(ثم افاض اللورد اڤبري في وصف اشغال هكسلي العلمية وذكر من المصطلحات والتدقيقات ما يتعذَّر فهمهُ على جمهور قرائنا وقال ان مقالاته التي تليت في الجمعية الملكية تزيد على المئة وفي كلٍّ منها حقائق جديدة واستدلالات بديعة . ويتعذَّر علينا ان نترجم كل ما قالهُ في هذا الموضوع لاحتوائهِ على كثير من المصطلحات العلمية التي لم تترجم الى العربية حتى الآن وليس هذا محل ترجمتها وشرحها ولذلك نقتصر على بعض الاقوال التي نظنها اقرب تناولاً من غيرها قال)

لما وضع دارون كتابهُ في اصل الانواع لم يصرّح بان آراءهُ تشمل الانسان ولو استنتج كلُّ من اطلع عليها انها تشملهُ . لكن المجاهرة بذلك كانت تقتضي علماً واسعاً وجرأة شديدة وقد قال وركو (العالم الالماني الشهير) " ان الانسان والحيوانات الدنيا واحدة في المادة والبناء وان المشابهة الاساسية بين الانسان والحيوان معترف بها الآن عموماً " . وعندي ان هذا القول ان صدق على المانيا لا يصدق على بلادنا لان كثيرين من رجالنا ونسائنا لا يصدقون رأي دارون ولا يفهمونهُ . وهم يحسبون انهُ قال ان الانسان متسلسل من القرود المعروفة وهذا غير صحيح لان الانسان لم يتولد من الغورلاّ ولا من الارانغ اوتانغ ولكن الانسان والغورلاّ والارانغ اوتانغ وغيرها من القرود الشبيهة بالانسان متولدة كلها من اصل بعيد جداً . وقد قال هكسلي في هذا الصدد " يمكننا ان نحكم ان هيكل الانسان الذي كان موجوداً في عصر البليوسين (من العصور الجيولوجية) لا يفرق عن هيكل الانسان في هذا العصر اكثر مما يفرق الفرس الذي وُجد في عصر البليوسين عن الفرس الذي في هذا العصر وحينئذٍ فانسان عصر البليوسين من جنس الانسان ولو عددتموهُ نوعاً قائماً برأسهِ . ولا استغرب ان نجد هيكل هذا الانسان في عصر البليوسين ونراهُ صغير الدماغ طويل اليدين متحرك ابهام الرجل "

وقد اكثر هكسلي من المقابلة بين الانسان وبين الشمبانزي والغورلاّ حاسباً انهما اقرب انواع القرود اليهِ وهذا هو الواقع الآن . ولكن الجبون (نوع من القرد) الذي يختلف الآن عن الانسان كثيراً في حجمهِ واستعدادهِ للاعتراش كان من اقرب القرود الى الانسان على ما يظهر من العظام التي اكتشفها المسيو دبوى في جاوى فان نصف الثقات عدها عظام انسان والنصف الآخر عدها عظام جبون كبير . فاذا بحثنا عن اصل الانسان رأينا ان الجبون كان اقرب اليهِ من الغورلاّ والشمبانزي . وقد قال هكسلي ايضاً ان الفرق بين انواع القرود في بناء اجسامها كبير جداً مثل الفرق بينها وبين الانسان او اكبر منهُ

وقال في مكان آخر ان احترامنا للانسان لا يقلُّ اذا عرفنا انهُ حيوان في الجسم مثل

سائر الحيوانات لانهُ هو وحدهُ قد وُهب قوة النطق وبها جمع اختبار افرادهِ منذ القرون الغابرة مما لم يستطعهُ غيرهُ من انواع الحيوان فوقف الآن فوقها كلها كأنهُ على ذروة جبل شامخ يعلو عنها علوًّا كبيرًا و يتجلى بما ينعكس عنهُ من النور المستمدّ من مصدر الحق الأزلي "

وسنة ١٨٧٠ انتخب عضوًا في مجلس ادارة المدارس الابتدائية بمدينة لندن فبقي فيهِ سنتين فقط لان صحتهُ لم تسمح باكثر من ذلك لكنهُ خدم مدينة لندن والبلاد كلها في هاتين السنتين خدمة لا تقدَّر وقد اشار ان يكون التعليم شاملاً الامور التالية

اولاً الرياضة البدنية والتمرين

ثانياً الاعمال اليدية على انواعها ولاسيما للبنات

ثالثاً آداب السلوك

رابعاً التعليم العقلي و يراد بهِ القراءة والكتابة والحساب ومبادىء العلوم الطبيعية والموسيقى والرسم

وكان من رأيهِ انهُ يجب على كل ولد ان لا يخرج من المدرسة الاَّ وقد صار لهُ المام بمبادىء العلوم الطبيعية بنوع عام

اما من حيث التعليم العالي فكان من رأيهِ ان لا بدَّ من تعليم العلوم الطبيعية واللغات الحديثة وان لا نترك اللغات القديمة . وقد استشرتهُ منذ سنوات كما استشرت غيرهُ مما يرتئيهِ من حيث تقسيم ساعات الدرس في الاسبوع فارتأى ان تخصص عشر ساعات في الاسبوع للغات القديمة وآدابها وعشر ساعات للغات الحديثة وآدابها و ٨ ساعات للعلوم الحسابية و ٨ ساعات للعلوم الطبيعية وساعتان للجغرافيا وساعتان للعلوم الدينية

اما انا فارى ان الوقت الذي خُصص لتعليم اللغات القديمة يضيع سدًى فان الخمر جيدة طيب الطعم ولكن اذا أُطعم الانسان لحمًا صبحًا وظهرًا ومساء يومًا بعد يوم كرهُ رائحة الخمر وطعمهُ. وكذلك الاكثار من درس اللغة اللاتينية يؤول الى السآمة والضجر

وكثيرًا ما حثَّ على تعليم العلوم الطبيعية من الصغر وقال " ان الانسان المتعلم هو الذي تدرَّب من حداثة سنهِ حتى يصير جسمهُ آلة خاضعة لارادتهِ يفعل ما تشاء عن طيب نفس كأنهُ آلة ميكانيكية في دقة عملهِ وذهنهُ مثل آلة منطقية يشتغل اشغالهُ العقلية بالتأني والتبصر فيكون مثل آلة بخارية تصلح لكل عمل تنسج ادوق الخيوط وتطرّق اكبر المراسي وعقلهُ مفعم بمعرفة حقائق الطبيعة ونواميس افعالها وقلبهُ مملوء بالحياة والنشاط واهواؤهُ خاضعة لارادتهِ وكلهُ عبدٌ لضمير صالح مستقيم يحبُّ كل ما هو جميل في الطبيعة والصناعة ويكرهُ كل قبيح دنيء ويكرم غيرهُ كما يكرم نفسهُ "

وقال ان لا بدَّ من ان يكون التعليم عموميًّا فيشمل العامَّة كما يشمل الخاصَّة لان العامة رجال ونساء مثل الخاصة وقواهم وقابلياتهم غير محدودة والشعب يهلك لقلة المعرفة

وقد تشكَّى مرة من ان خدَمة الدين يهاجمونهُ دائمًا و يعقبون على كل كلمة يقولها و يتركون صديقهُ تندل يقول ما يشاء . لكن الامر لم يكن كذلك دائمًا فقد مضيت مع تندل سنة ١٨٧٤ الى نابلي لنرى ثوران بركان يزوف وكان احد جوانبهِ كثير التحدُّر الى الهوة التي في قلبهِ فصعدتُ الى ذلك الجانب وخاطرتُ بنفسي حتى ارى الهوة ثم عدنا من هناك . وخطب تندل خطبتهُ المشهورة في مجمع ترقية العلوم البريطاني في بلفست فكان لها دويٌّ في كل المسكونة وقرأها كثيرون وانتقدها كثيرون . وذكرت احدى الجرائد تندل وهكسلي فمدحت هكسلي وذمَّت تندل وقالت في الختام " وافضل مثال لجهل الاستاذ تندل وتهوُّرهِ وحكمة الاستاذ هكسلي وتأنيهِ انهُ في الربيع الماضي بينما حمل الغرور والجهل تندل على اقتحام فوهة بركان يزوف كان هكسلي جالسًا في مجلس ادارة المدارس بمدينة لندن"

ومما يحسن سوقهُ هنا ان تندل عاد من النزهة في نابلي بالصحة والنشاط . واما هكسلي فاعتلت صحتهُ من قيامهِ في مجلس المدارس

وقد استغرب الناس من هكسلي وهو في مجلس ادارة المدارس اقرارهُ على تدريس التوراة وقد اقرَّ على ذلك كل اعضاء المجلس ما عدا ستة ثلاثة منهم من الكاثوليك وهؤلاء لم يقترعوا مع الذين طلبوا تعليم التوراة ولا مع الذين رفضوهُ . لكن هكسلي كان يكرم التوراة ويقول انها الكتاب الوحيد الذي يرى فيهِ المرء نفع الصلاح وضرر الطلاح بامثلة كثيرة ترسخ في النفوس

وقد قال في هذا الصدد "اني لا أعرف غير التوراة مقياسًا عمليًّا لحفظ الشعور الديني الذي هو الاساس الجوهري لسلوك الانسان في هذا العصر عصر الارتباك والاضطراب في الآراء والافكار فانك اذا حذفت منها ما لا نحب ان يطلع صغارنا عليهِ تبقى مفعمة بكل ما يهذب الاخلاق و يرقي الآداب . وزد على ذلك انها قد امتزجت في الثلاثة القرون الاخيرة باشرف ما في تاريخنا وافضلهِ . ولغتها ابلغ ما عندنا والمطَّلع عليها وان كان داريًا لم يغادر بيتهُ قط يعلم منها عن وجود بلدان اخرى واقوام آخرين وتاريخ قديم لنوع الانسان يمتدُّ الى اقدم ما يمتدُّ اليهِ تاريخ امم العالم . واي كتاب غير التوراة يرى قارئهُ ان كل امرئ ذُكر في ذلك التاريخ الواسع هو مثلهُ يملأ حيزًا صغيرًا جدًّا بين الازل والابد ويُذكَر بالمدح او بالذم وينال الثواب او العقاب حسبما فعل خيرًا كان او شرًّا "

(ستأتي البقية)